

## الدرس الثاني: دعوة للتفكير في عجائب البحار

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتني في الله، نحن على موعد مع قصة السفينة التي لا تقهر، يذكر أنه في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، صنع الإنجليز باخرة عظيمة، كانت كما يقولون فخر صناعاتهم، ثم انطلقت في رحلة ترفيهية حاملة على متنها عليّة القوم ونخبة المجتمع كما يصفون أنفسهم، وقد بلغ الفخر والاعتزاز ببناء السفينة درجة كبيرة من الصلف والغرور فسموها الباخرة التي لا تقهر، بل سمع أحد أفراد طاقمها يتشدد فخرأ أمام بعض كبار ركابها بما ترجمته: حتى الله نفسه لا يستطيع أن يغرق هذا المركب، جل الله وتعالى وتقدس لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يحيي ويميت، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وفي اليوم الثالث من سيرها في المحيط الأطلسي وفي خضم كبرياء صنّاعها وركابها تصطدم بجبل جليدي عائم فيفتح فيها فجوة بطول تسعين متراً، وبعد ساعتين وربع تستقر الباخرة التي لا تقهر - كما زعموا - في قعر المحيط ومعها ألف وخمسمائة وأربع ركاب وحمولة بلغت ستة وأربعين ألف طن، {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(40)} [العنكبوت:40].

تأمل معي أخي الكريم في الله البحر بأواجه وأحيائه تجده آية من آيات الله وعجائب مصنوعاته، وكم لله من آية! ثم أضف إلى علمك أن الماء في الأرض يملأ ثلاثة أرباع سطح الأرض فما الأرض بجبالها ومدنها وسهولها وأوديتها بالنسبة إلى الماء إلا كجزيرة صغيرة في بحر عظيم يعلوها الماء من كل جانب وطبعها العلو ولولا إمساك الرب سبحانه وبحمده للبحر بقدرته ومشينته لطفح على الأرض فأغرقها

ودمرها وجعل عاليها سافلها، فتبارك الله لا إله إلا هو رب العالمين، ثم تأمل معي أخرى عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها ومضارها وألوانها تجد عجباً وقدرة قادر جل وعلا، قال الإمام ابن القيم في مفتاح السعادة : في البحار حيوانات كالجبال لا يقوم لها شيء، وفيه من الحيوانات ما يرى من ظهورها فيظن من عظمتها أنها جزيرة فينزل عليها الركاب ويشعلون نارهم فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيُعَلِّم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله بل فيه أجناس لا يعهد لها نظير أصلاً، مع ما فيه أيضاً من اللآلئ والجواهر والمرجان فسبحان الخالق العظيم، ثم انظر إلى السفن وسيرها في البحر تشقه، بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الريح التي سخرها الله لإجرائها، فإذا حبست عنها الريح ظلت راكدة على وجه الماء، فذاك قول الله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجُؤَارُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)} [الشورى: 32 - 33]، نعم، سخر لكم أفلك لتجري في البحر بأمره، لا بأمر غيره سبحانه وبحمده، سخرها بأمره تجري ليست وفق رغبات النفوس الأمارة بالسوء، ولا رغبات الجشعين من الأفراد والهيئات التي استعملت أساطيلها منذ أقدم العصور إلى يومك هذا لقهَر الإنسان ونهب خيراته واحتقار آدميته، فلك الحمد ربنا، ولك الأمر من قبل ومن بعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخي الحبيب، تأمل معي مرة أخرى كيف مد الله البحار، وخطها، وجعل مع ذلك بينه حاجزاً ومكاناً محفوظاً، فلا تبغي محتويات بحر على بحر، ولا خصائص بحر على آخر عندما يلتقيان، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى} [طه: 54]، في إيران أنهار عندما تلتقي بمياه البحر ترجع مياهها عائدة إلى مجاريها التي جاءت منها، ونهر الأمازون يجعل مياه المحيط الأطلسي عذبة لمئات الكيلو مترات من مصبه فيه فلا يختلط بمياه المحيط الأطلسي، وتلتقي مياه المحيط الأطلسي بمياه البحر الأبيض فتبقى مياه البحر الأبيض أسفل لثقلها ولكثرة ملحتها وتعلو مياه المحيط لخفتها، وكذلك لا تختلط مياه البحر الأسود بمياه البحر الأبيض عندما تلتقي بل تشكل

مجريين متلاصقين فوق بعضهما البعض، فمياه الأسود تجري في الأعلى نحو مياه البحر الأبيض لأنها أخف، ومياه البحر الأبيض تجري في الأسفل لأنها أثقل فتجري نحو البحر الأسود، فتبارك الذي قال ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ (53) {الفرقان: 53}.

معاشر الإخوة، سأل رجل أحد السلف عن الله، قال له : ألم تتركب البحر؟، قال: بلى، قال فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة قال: نعم، قال وانقطع أملاك من الملاحين ووسائل النجاة، قال: نعم، قال فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك بأن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء، قال: نعم، قال فذاك هو الله لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً الذي قال في كتابه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بَغِيرَ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (23) {يونس: 22 - 23} (59).

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السفن، حتى إذا كنتم فيها وجرت بريح طيبة، وفرح ركاب السفن بالريح الطيبة، جاءت هذه السفن ريحاً شديدة، وجاء الركاب الموج - وهو ما ارتفع من الماء - من كل مكان، وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، أخلصوا الدعاء لله وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها لنكونن من الشاكرين لك على نعمك. فلما أنجاهم الله من الشدائد والأهوال إذا هم يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي. يا أيها الناس إنما وبأل بغيتكم راجع على أنفسكم، لكم متاع في الحياة الدنيا الزائلة، ثم إلينا مصيركم ومرجعكم، فنخبركم بجميع أعمالكم، ونحاسبكم عليها.

إخوتي في الله، عجائب البحر أعظم من أن يحصيها أحد إلا الله، كشف علماء البحار من النصف الثاني من القرن العشرين أن في البحار

أمواجاً عاتية دهماء مظلمة حالكة، إذا أخرج المرء يده لم يكذبها فاعلى عمق ستين متراً عن سطح البحر يصبح كل شيء مظلماً في البحار، بمعنى أننا لا نستطيع رؤية الأشياء في أعماق تبعد ستين متراً عن سطح البحر، ولذلك زود الله الأحياء البحرية التي تعيش في أعماق البحار اللجية بنور تولده لنفسها ومن لم يجعل الله له نوراً في تلك الظلمات فما له من نور، نسي هؤلاء المكتشفون أن الله ذكر تلك الظلمات في قوله قبل أن يخلقوا وأبائهم وأجدادهم {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40)} [النور:40] تُرجم معنى هذه الآية لعالم من علماء البحار أفنى عمره في ذلك، وظن أنه على شيء وأنه اكتشف شيئاً، وجاء بشيء فيه إبداع، فقال في دهشة بعد ترجمة الآية: إن هذا ليس من عند محمد الذي عاش حياته في الصحراء، ولم يعاين البحر ولججه وظلماته وأمواجه وشعبه، إن هذا من عند عليم خبير ثم شهد شهادة الحق ودخل في دين الله، نعم لا يملك إلا ذلك، من وصف الظلمات في قعر البحار سوى الله العليم الباري، سبحانه ملكاً على العرش استوى وحوى جميع الملوك والسُلطان، لا إله إلا الله كيف تعمى العيون وتعمى القلوب عن آيات الله {إِلَهِ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل:62] (59)، وصدق الشاعر حين قال:

|                                 |     |                               |
|---------------------------------|-----|-------------------------------|
| فيا عجا كيف يعصى الإله والله في | ... | أم كيف يحجده الجاحد كل تسكينة |
| كل تحريكة وفي وفي كل شيء له آية | ... | أبدًا شاهد تدل على أنه الواحد |
|                                 | ... |                               |

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

\* \* \*